معاناة الموظفين بين الأسمر وغنيم

موظفو الحكومة يستحقون الشفقة في كل زمان ومكان، فهم وقود التنمية الرخيص، وملح حياة الناس اليومية الذي يأتدمون به، وهم فوق ذلك ومع ذلك وبين ذلك كله: مادة صالحة للسخرية والتفكه والتندر، لما يبدر منهم من سلوكٍ ناب أو رد خشن، ولما يميل إليه بعضهم من حب الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل، وقد اتخذ منهم الشعراء ورسامو الرسوم الهزلية (الكاريكاتير) مادة ثرية لاستجلاب الضحك، وتوليد النكت، واتخذ منهم كتاب القصة والمسرح – في الشرق والغرب مادة رائعة للدراما المسلية كما نرى في أقصوصة "تشيكوف" الشهيرة "موت موظف".

وقد أجاد الشاعران المتعاصران "محمود غنيم" و"محمد الأسمر" وصف معاناة الموظفين خير إجادة، فقد جمع بينهما أن كلاً منهما بدأ السلم الوظيفي من أدنى درجاته إلى أعلاها، فقد بدأ "غنيم" حياته الوظيفية معلماً وما زال يرتقي حتى بلغ وظيفة عميد مفتشي اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم. وبدأ محمد الأسمر حياته الوظيفية موظفاً إدارياً صغيراً في وزارة الأوقاف حتى بلغ منصب أمين عام الوزارة.

وبين هذه وتلك من مراحل النمو الوظيفي، كانت أبيات كلا الشاعرين تتردد في الأوساط الأدبية وتذيعها الصحف على الناس فيتناقلها الظرفاء والأدباء في مجالسهم.

والشعر الفكاهي في مجال التندر بحياة الموظفين ومعاناتهم يتخذ مسارات شتى فمن شكوى غلاء المعيشة وضعف الرواتب ومن شكوى الظلم الإداري والنقل التعسفي إلى شكوى الرسوب الوظيفي وضعف الترقيات، غير أن هذه الشكاوى قد تبلغ أحياناً حد المرارة فتصبح لوناً من "الكوميديا السوداء" حين يقول محمود غنيم متحسراً على مكانة الشاعر المعلم في مجتمع يحتفي بالفن والفنانين ويدير ظهره للعلم والعلماء والشعر والشعراء فيقول:

إلى مَنْ أشتكي يا رب ضَيْمي؟ أرى نفسي غريباً بين قومي!!
لقد هتفوا لـ"محمودٍ شكوكو" ما شعروا بـ"محمودٍ غُنَيْمِ"!!

الملكافاة تاخرت :

ونبدأ مع الشاعر محمد الأسمر الذي انتدب ذات مرة من وزارة الأوقاف فعمل بعض الوقت لدى وزارة الداخلية لمراقبة بعض مطبوعاتها، وتأخرت وزارة الداخلية في صرف مكافأته عن هذا العمل الذي ندبته له. فلما سأل الشاعر عن سبب تأخر صرف المكافأة قيل له إن "عبد الرحمن عمار بك" وكيل وزارة الداخلية لم يوقع الأوراق، فكتب الأسمر إليه يذكّره بأن طلب صرف المكافأة الخاصة به قد زكاه "الرئيس" إبراهيم عبد الهادي باشا رئيس الوزراء، ووقع عليه "توفيق صليب" مدير المطبوعات بالوزارة:

(عـــمَّارُ) يـــا أخـــا الأدبْ لي عنـــدكم حـــقٌّ وجـــبْ
بـــالأمسِ زكّـــاه (الرئيـــ ـــسُ) خـيرُ مـن زانَ الرُّتـبْ

وقـــال (توفيـــقٌ) دنـــا ... مـــا ترتجيـــهِ واقـــتَربْ
وكـــلَّ يـــومٍ لم أزلْ ... أســـألهُ وأرتقـــبْ

ويصف الأسمر ليالي انتظار المكافأة الطوال اللاتي يخاصم فيها النوم عيني شاعرنا حتى لكأنه محب عاشق ينتظر وعداً باللقاء من حبيبة غائبة، ويتساءل شاعرنا: أين أنت يا وكيل الوزارة: أأنت مازلت في مصر، أم انتقلت إلى بلاد الشام؟! ويستصرخه باسم "الأمن" الذي يحافظ عليه في طول البلاد وعرضها، أن يدرك "أمن" جيب صاحبنا الذي أخذ في الاضطراب:

تمضي ـ الليـالي وهـي في الطُّـ ... ـولِ شـبيهاتُ الحِقَـبْ
فقصِّرـ الليـلَ عـلى ... مُضْـناكَ وانظـر في (الطَّلَـبْ)
قـالوا عـلى الإمضـاء قُلـ ... ـتُ عجـبٌ أيُّ عجـبْ
هـل (الوكيـلُ) هاهُنـا ... أم الوكيـلُ في (حَلَـبْ)؟!!

الحضور والانصراف وكآبة الدواوين:

وكانت قد أسندت إلى الشاعر "محمد الأسمر" في أول عمله بالحكومة (وظيفة كتابية) تتعلق بحضور بعض الطلبة بالأزهر أو عدم حضورهم، وما شابه ذلك من أمور الطلبة ، فقال متذمراً من سوء هذا العمل الروتيني ومرارته:

مَنْ مُجيري مِنْ (خليلٌ غائب) ... و(لبيبٌ) أو (سعيدٌ حاضِرُ)
و(إجـازات عـليٍّ) بَلغـتْ ... مُنْتهاهـا و (مـريضٌ طـاهرُ)
وفـلان (راسـبٌ) أو (مُوقَـفٌ) ... وفـلانٌ (أول) أو (آخِـرُ)

و(الحسابات) وناهِيكَ إذا ضلّ أو أخطأ فيها الناظِرُ
و(القيوداتِ) التي لا تنتهي فخطاب (واردٌ) أو (صادرُ)
و(السجلات) وما قد جَمَعتْ فهي بَحْر وخِضَمٌّ زاخرُ
حالةٌ ما كنتُ يوماً ما لها فهي لا ينفعُ فيها الشاعرُ
كُلُّ ميدانٍ له فارسُهُ حاسِبٌ أو شاعرٌ أو ناثرُ

ويسخر محمود غنيم من بعض دواوين الموظفين وما يشيع فيها من خمول وبلادة واستهانة بحاجات الناس، ودأب الموظفين على إزجاء الوقت في القيل والقال، وتفننهم في تعذيب أصحاب الحاجات، وتسويف قضائها بغير عذر، ولجوئهم إلى الإجازات المرضية دون حاجة إليها فيقول:

دواوينُ شِيدتْ للكرى والتثاؤبِ لحا الله أصناماً وراءَ المكاتبِ
إذا أَمَّهم ذو حاجةٍ لقضائها فأقربُ منها نيلُ بعض الكواكبِ
هنا الوقت يمضي بين: لهوٍ وغفلةٍ وتسويف مطلوبٍ، وإلحاح طالبِ
وكم سلِمتْ أجسامهم، فتمارضوا وراغوا من الأعمال روْغ الثعالبِ
وكم رُمِيَ الحرُّ الكريم لديهمو بغلظة ساعٍ، أو فظاظة حاجبِ

ثم يسخر من أخلاقيات بعض الموظفين الذين يجبنون أمام رؤسائهم ويستأسدون على الفقراء من ذوي الحاجات، ولا يفكرون إلا في الرواتب والعلاوات والترقي:

نعامٌ إذا هم أبصروا رؤساءهم سباعٌ على الجمهور حُمْرُ المخالبِ

وما حلموا في النوم إلا برتبةٍ تُساقُ إليهم، أو زيادةِ راتبِ
ومن زار منهم كاتباً ، خال أنه بحضرة "شاه"، لا بحضرة كاتبِ
إذا خاطب الزُوَّار ، صعَّر خدَّه وأوما برأس، أو أشار بحاجبِ
ولو فتشوا عما حوته جيوبُهُ لما اغترَّ مغترٌّ بتلك المناصبِ

الكادر . . ذلك الحبيب الغادر:

وفي مرحلة مبكرة من حياة محمود غنيم الوظيفية نشرت له قصيدة في صحيفة "الأهرام"عام ١٩٣٩ بعنوان (الكادر) سخر فيها من تقتير الحكومة على موظفيها البائسين، حتى إن الآباء الموظفين يوشكون على وأد أبنائهم خشية الإملاق كما كان أهل الجاهلية يفعلون:

أيها القوم، حسبكمْ إرهاقاً كم علينا تضيِّقون الخناقَا
هل تريدون أمة يئد الوا (م) لد فيها أولاده إملاقاً
ويحكم! لا منابع النيل غاصت لا،ولا سطحُ مصرَ بالناس ضاقا
ضغطوا "الكادر" الجديد إلى أن لبستهُ أعناقنا أطواقا
اختزال يجيء إثر اختزال من قلوب لا تعرف الإشفاقا

ويصف الشاعر قسوة حياة الموظف الذي يتطلع إلى الترقي الوظيفي متجاهلاً أنه يعيش في بلد يتنكر لرجاله، ويضن عليهم بأيسر حقوقهم وهي العلاوة السنوية الدورية التي تتأخر دونما سبب، بلد لا يعرف الرقي فيه إلا ذوو الحسب

والنسب ممن يملكون الواسطة فيثبون إلى العلاوات وثباً، ويتعثر الذين لا واسطة لهم ويتخبطون.

قل لمن يَنشد الرقيَّ عزاءً ... إن دون الرقيّ سبعاً طباقا!
ما كفاكم أن العلاوة يا قو ... م، أطالت على الجيوب الفراقا
كم مشينا إلى العلاوة حبْواً ... وامتطى غيرنا إليها البراقا
ويح مصرٍ! أرى الموظف فيها ... حُمِّل العبءَ وحده فأطاقا
قتَّروا جهدهم عليه وقالوا: ... لا تكن ناهباً، ولا سراقا
من ينجِّيه من بنين صغار ... وبنات يسألنه الإنفاقا؟

ثم تبلغ السخرية غايتها حين يتوجه الشاعر بالخطاب إلى زميله الموظف ساخراً طالباً منه أن ييأس من اللجوء إلى المخلوقين، ويتجه إلى الله وحده سبحانه فهو الخالق الرازق، ويطلب "غنيم" من الموظف ألا يصنع لثوبه جيوباً، فما حاجته للجيوب وهو لا يملك ما يضعه فيها؟، بل إنه ينصحه بأن يهجر الأسواق إذ لا ناقة له فيها ولا جمل، وأن يتخفف حتى من الثياب إن استطاع:

أيها البائس المعذب رحما ... (م) ك! دع الخلق، واسأل الخلاقا
لا تخِطْ للثياب – ويحك – جيبا ... والزم البيت، واهجر الأسواقا
وإذا جعت، فامضغ الصبر! ما أحـ ... (م) ـلاه في ذلك الزمان مذاقا!
ما لكم والثياب إن أباكم ... (م) آدمًا كان يلبس الأوراقا
عَلِمَ الله، لا أضن ولو أنّ ... (م) بلادي كَلَّفَنَني الأحداقا

غـــير أني عـــلى بـــلاديَ أخشـــى أن أرى الجـــوع دهْـــورَ الأخلاقَـــا

على أنني أرى في البيت قبل الأخير خللاً لغوياً في قوله "كلفنني" بنون النسوة، وهكذا ورد البيت في ديوانه. ويبدو أنه اضطر إلى ذلك، ولو قال (كلفتني) بتاء التأنيث الساكنة لاختل الوزن.

رحماك أيتها العلاوة:

ويتخيل غنيم العلاوة غادة حسناء لها ما للغواني من خصال الهجر والخصام، والدلال،وإخلاف الوعود فهو يتذلل وهي تتدلل، وتصل من لا يحتاج لوصلها من كبار المستشارين في الوزارة وتعرض عمن يهيمون بها من صغار الموظفين. وقد نشر "غنيم هذه القصيدة في " الأهرام" يوم ٢٤ من أبريل عام ١٩٣٥م.

قـد حـل مـايو، فاسْـمَحِي بوصـالي مُنِّـي عـليَّ، ولـو بطيـف خيـال
يا أختَ "عرقوب"، وعدت، فأنجزي يكفـي جفـاؤك مـن سـنين طـوال
في أي نجـــم نـــازح حجبـــوك أم في أيِّ ســجن محكــم الإقفــال؟
هـــل أنـــت إلا كـــالغواني، طالمـــا سـقن الـدلال عـلى رقيـق الحـال؟
هيفـاء، يَحظـى المستشـار بوصـلها وتصـدَّ كـل الصـد عـن أمثـالي
لا هُـمَّ، لا أشـكو لغـيرك علتـي أنقصْتَ من رزقي، وزدت عيالي!
يـا رُبَّ طفـل جـاءني، أطعمتُـه مـا في فمـي، وكسـوتُه سربـالي
مـالي أرى أمـوال مصر كأنهـا بعـضُ الحبـوبُ تُكـال بالمكيـال؟
حتـى إذا طلـب الصـغير حقوقـه شـكت الخزانـة قلـة الأمـوال؟
فـازَ السـعيدُ بعمـه، وبخالـه وفقـدتُ عمـي في الحيـاة وخـالي!

حتى الوظيفة الكبيرة لا قيمة لها!!

وسخر "محمود غنيم" من الوظائف الكبيرة حين تكون كألقاب أمراء الأندلس الخاوية الخالية من المضمون. فهو حين رقي إلى وظيفة "مفتش" لم يجد لهذه الترقية أثراً ماديا في حياته، ورأى عام ١٩٤٣م، بمناسبة توليه هذا المنصب أنه زيفٌ لا طائل من ورائه مادام خالياً من الرقي المادي، فقال:

وما سرَّني التفتيشُ حين وَلِيتُه ... ولا أنا -إن ولَّى- عليه بآسف
لقد خِلتُه يغني عيالي من الطوى ... فكان كمضروبٍ من النقد زائف
وَزارةُ مهضُومين، ليس بقابضٍ ... فتًى يرتقي فيها، وليس بصارف
إذا قيل: منسيُّون، فتشتُ عنهمو ... فلم ألقهم إلا رجال المعارف

وتخيل حوارا دار بينه في العام نفسه- وبين بعض الشحاذين الذين يسألون الناس في الطرقات صدقة وإحساناً، وكان هذا الموقف الطريف يروى عن الشاعر حافظ إبراهيم حين قابله شحاذ وطلب منه "حسنة للّه" فقال له حافظ:" عمرك أطول من عمري" [وهي تعني في العامية المصرية أنك سبقتني في التلفظ بما كنت أود أن أقوله لك!!] لكن شاعرنا "محمود غنيم" تخيل في هذا الحوار الذي دار بينه وبين أولئك الشحاذين معنى لم يرد في عبارة "حافظ إبراهيم" الفكاهية وإن لم يبتعد عن دلالتها كثيراً:

قال لي اليوم يائسون عفاةُ: ... أعطنا. قلت: إن أصبتم؛ فهاتوا
ثقلَتْ وطأةُ الغلاء؛ فحلَّت ... لكبار الموظفين الزكاةُ
لا تروموا الزكاة منا احتسابًا ... نحن -لا أنتمُ- الجياعُ العراةُ